أثر انحصار مياه النيل خلال العصر الوسيط في أزمات مصر الشدة العظمى أنموذجا.

The decline in the level of the Nile during the Medieval era affected the crises of Egypt "the great intensity as a model".

بشير مبارك.

-مخبر الدراسات التاريخية والأثرية؛ المركز الجامعي عبد الله مرسلي تيبازة؛ (الجزائر).

- البريد الإلكتروني: *mebarek.bachir@cu-tipaza.dz*

تاريخ الإرسال: 2025/02/16؛ تاريخ القبول:2025/05/25؛ تاريخ النشر:2025/06/15.

الملخص:

تتطرق هذه الورقة البحثية إلى قضية تتعلق بنيل مصر وأثره في رقي البلاد ورخاء وثراء العباد، فكما قال هير ودوت " مصر هبة النيل"، هذه المقولة لا يعرف معناها سوى من تعمق في دراسة حضارة مصر وأثر النيل فيها، إذن للنيل فضل كبير على مصر وأهلها .

وتركز بالأخص على الشدة العظمى التي شهدتها مصر في نهاية القرن الخامس الهجري(11م) في فترة حكم المستنصر بالله الفاطمي بعد تراجع مياه النيل لعدة مرات في خلافته، هذا التراجع نتج عنه أزمة ضربت عموم مصر من مظاهرها: غياب المؤونة، انتشار المجاعة، كثرة الموت.

من خلالها ما تطرحه يمكن الخروج بكثير من الحِكَمِ في مقدمتها ضرورة المحافظة على نعم الله على عبده في مقدمتها المياه أساس كل حياة على سطح الأرض .

الكلمات المفتاحية: مصر؛ النيل؛ المجاعة؛ الشدّة العظمى؛ العصر الوسيط.

Abstract:

The research paper aims to talk about Egypt's attainment and its impact on the country's prosperity and the richness of its inhabitants, as Herodotus said "Egypt is the gift of the Nile,", The meaning of this statement is known only to those who have deepened the study of Egypt's civilization and the impact of the Nile on it.

The paper focuses on the great intensity that Egypt witnessed During 5th century Hijri (11m) in the period of Mostansir bi lah alFatmi after the decline of the Nile water for several times, This decline has resulted in a crisis that has affected Egypt from its results : unavailability of food, widespread starvation, Death in abundance.

Through what the paper puts forward, much of the judgment can be drawn from the foremost of which is the need to preserve God's yes to His slave, foremost of which is water, the source of all life on Earth's surface.

Keywords: Egypt; Nile; famine; Great intensity; Medieval era.

مقدمة:

قيل قديما مصر هبة النيل، فالمطلع على تاريخ مصر قديما أو حديثا يعلم جيدا دون شك أن رقي مصر وازدهارها مرتبط ارتباطا وثيقا بنهر النيل، بناء على ذلك يجدر بنا القول أن أساس حضارة مصر

نيلها الذي يغنى به الكثير من أبنائها وغيرهم في مختلف العصور والأزمنة.

والمطلع على التاريخ الحضاري لأرض الكنانة يظهر له جليا أن ذهاب النيل يعني ذهاب هبة مصر، ذلك ما عاشته مصر خلال الفترة الوسيطة حين انخفض منسوب نهرها مرات عدة عرفت مصر خلالها أزمة عُدّت من أكبر الأزمات على الشعوب في تاريخ البشرية تلك الأزمة اصطلح عليها بالشدة العظمى أو الشدة المستنصرية.

اعتبارا لذلك جاءت ورقتي البحثية موسومة بـ :"أثر انحصار مياه النيل خلال العصر الوسيط في أزمات مصر" الشدة العظمى أنموذجا".

سأركز من خلال هذا البحث على جملة من النقاط: نبذة عن نهر النيل وأثره في رقي مصر، مع الإشارة إلى انخفاض نهر النيل وانعكاسات ذلك على المجتمع والسياسة والاقتصاد خلال الفترة الوسيطة وبالضبط خلال فترة حكم المستنصر بالله الفاطمي.

تطرح الورقة البحثية إشكالية رئيسة هي: مصر والنيل خلال العصر الوسيط علاقة تأثير وتأثر.

وتتفرع عن هذه الإشكالية تساؤلات ثانوية أهمها:

- كيف وصف المصادر نهر النيل؟
- لماذا ارتبطت هبة مصر بنيلها؟
- ما المقصود بالشدة العظمى؟
- هل لنهر النيل علاقة بذلك؟
- كيف تّر ذلك على الحالة العامة للمصريين؟

وللإجابة عن تساؤلات الورقة البحثية كان لابد من اعتماد منهج تاريخي خاص يجمع بين الوصف والتحليل والنقد ومقابلة النصوص.

ذلك كله من خلال استقراء المادة العلمية المبثوثة في مختلف أمهات المصادر وكذا الدراسات المتخصصة.

1 -نيل مصر من خلال المصادر:

تعتبر مصر من أقدم البلاد الضارب تاريخها في البشرية بحيث عَرَفت العديد من الحضارات لعلّ في مقدمتها الحضارة الفرعونية التي قامت على ضفاف نهر النيل، يمتد حدّها في الطول على مسافة أربعين يوما انطلاقا من برقة وصولاً إلى عقبة أيلة، أما عرضاً فتمتد على مسافة ثلاثين يوما انطلاقا من مدينة أسوان وهي من أعمال الصعيد وصولا إلى العريش (إياس الحنفي، 1960: 05).

إن مصر في تاريخها القديم والوسيط والحديث وحتى المعاصر ارتبطت ارتباطا وثيقا بنيلها الذي يعد أحد أبرز كبار أنهار المعمورة الخمس وهي: "النيل ودجلة والفرات وسيحون وجيحون (ابن بطوطة، د ت:36). ما يهمنا في هذه الورقة البحثية نهر النيل.

تحدثت الكثير من النصوص المصدرية سواء التاريخية أو الجغرافية وكذا كتب أدب الرحلة عن النيل كثيرا، فوصفته بأوصاف كثير منها منطقي والقليل منها يدخل ضمن الأسطورة كما نوضح ذلك لاحقا.

وتشير بعض النصوص أن النيل هو تعريب لكلمة نيلوس الرومية (ياقوت الحموي، 1977،ج 05 :334)، وفي وصفه قال ابن إياس الحنفي: أن النيل نهر بمصر(إياس الحنفي، 1960:05)، وهو فيض مصر(ابن منظور، دت،ج51: 4594) تمييزا له عن بعض الأنهار التي تأخذ نفس التسمية -نيل - في صورة نيل الكوفة الذي ذكرته المصادر كثيرا تحت اسم النيل نهر بالكوفة(ابن منظور، دت،ج51: 4594).

ويعد النيل من أفضل أنهار المعمورة من ناحية العذوبة والمذاق والاتساع، ولا يوجد في المعمورة نهر سمي بحرا سواه(ابن بطوطة، د ت:36)، إذ ورد في القرآن الكريم بلفظة يَمْ التي ترادف لفظة بحر في اللغة العربية قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنَ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ (سورة القصص، الآية:07)، وذهب كثير من أهل العلم أن اليم في الآية الكريم يقصد به نيل مصر في مقدمة هؤلاء ابن كثير في تفسيره.

وللنيل عجائب جمّة منها أن زيادته تكون في وقت اشتداد الحر أما نقصانه فيكون في وقت الشتاء لما تفيض بقية الأنهار(ابن بطوطة، د ت:36)، ومنها أيضا: أنه مخالف لكل أنهار الأرض فكل الأنهار تستقبل الجنوب أما النيل فيستقبل الشمال (الحميري، 1985: 657).

وتباينت الروايات حول منبعه بين رواية تقول أنه يخرج من الجنة وبالتالي يعد من أشرف الأنهار اعتمادا على آيات قرآنية وأحاديث نبوية شريفة كما سنوضح ذلك لاحقا في حديثنا عن فضل نهر النيل، ورواية أخرى تقول أن منبعه من اثنتي عشرة عينا تحت جبل القمر وراء خط الاستواء بسبع درجات ونصف(الحميري، 1985: 657) وهذه رواية الحميري في الروض المعطار.

أما الرواية الأخرى فتعد من أقدم الروايات ذكرها بطليموس ونقلها عنه الأفقهسي شهاب الدين مفادها أن النيل قسمان الأبيض ينبع من بحيرة استوائية، والأزرق ينبع بن بحيرة تانا، كما أشار في نفس الوقت إلى أنه ينبع من جبال تغطيها الثلوج وهي جبال القمر مثل: جبال

ركينيا، وكليمنجارو، والجبال الواقعة قرب بحيرة فكتوريا (الأفقهسي شهاب، 2006 :8).

ويظهر أن الرواية الأخيرة تتفق عليها الكثير من الكتابات في صورة بطليموس، والحميري والأفقهسي، والحسن الوزان (ليون الافريقي، 1983، ج:2: 256). أي أن النيل ينبع من جبال القمر.

إلا أن الحسن الوزان في وصف افريقيا يضيف روايات أخرى حول منبعه ويشير أن ذلك أشبه بالأسطورة إذ لم ير شيء منه: "...، ينبع في سهول مهجورة بسفح هذا الجبل من عدة عيون متباعدة عن بعضها البعض...، ينحط من الجبل بتدفق شديد إلى حد أنه يدخل تحت الأرض ثم يخرج من مختلف هذه العيون، لكن هذا مجرد افتراضات إذ لم يشاهد قط شيء من ذلك"(ليون الافريقي، 1983، ج02: 256).

هذا ويعد نهر النيل من أطول أنهار الأرض تبعا لما ورد في كثير من النصوص، في مقدمتها ما ورد عند الحميري في قوله:" نيل مصر يجري على وجه الأرض سبعمائة فرسخ أو تسع مائة ويخرج في غير عمران مسيرة أربعة أشهر، وفي بلاد السودان مسيرة شهرين، وفي بلاد مصر مسيرة شهر إلى أن يصب في البحر بحلق رشيد بشرقي الإسكندرية..."(الحميري، 1984: 657).

ويضيف ياقوت الحموي في وصف طول النهر قائلا: "...، ليس في الدنيا نهر أطول من النيل لأن مسيرته شهر في الإسلام، وشهران في بلاد النوبة، وأربعة أشهر في الحراب حيث لا عمارة فيها إلى أن يخرج في بلاد القمر خلف خط الاستواء ..."(الحموي، 1977، ج05: 334).

ومن الأساطير الواردة حول النيل أنه يعيش حوله قوم متوحشون غذاءهم العشب، وعدت هذه الرواية من الأكاذيب الملفقة(ليون

الافريقي، 1983، ج:2: 257). ومنها كذلك أن النيل تبدد على وجه الأرض ولم يكن معتدل الجريان حتى جاء نقراوش الجبار بن مصرايم بن مركابيل بن دوابيل بن عرباب بن آدم عليه السلام إلى مصر أين حفر النيل وأجروا ماءه إليهم (الأفقهسي شهاب، 2006: 10).

وفي فضل النيل وردت كثير من الأحاديث النبوية تصنفه ضمن أنهار الجنة، من ذلك حديث ورد عند مسلم بإسناد صحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سيحان، وجيحان، والفرات، والنيل، كل من أنهار الجنة"(مسلم، 1930، ج 17: 176).

وأضاف النووي شرحا آخر للحديث فقال: نهر النيل يخرج من سدرة المنتهى ويتضح ذلك في قوله: "ذكر مسلم في كتاب الإيمان في حديث الإسراء أن الفرات والنيل يخرجان من الجنة وفي البخاري من أصل سدرة المنتهى"(مسلم، 1930، ج 17: 176).

وقدّم الأفقهسي شرحاً مفصلاً لهذا الحديث نقلا عن البغوي فقال: هذه الأنهار الأربعة تخرج من نهر الكوثر .قال كعب الأحبار: نهر دجلة نهر ماء أهل الجنة، ونهر الفرات نهر لبنهم، ونهر مصر نهر خمرهم، ونهر سيحان نهر عسلهم(الأفقهسي شهاب، 2006: 37).

2 -النيل أساس حضارة مصر عبر العصور:

كما أشرت سابقا بناء على مقولة هيرودوت: "مصر هبة النيل" ذلك أن رقيّها مرتبط ارتباطا وثيقا به والعكس صحيح، فجل الحضارات التي قامت في مصر ارتكزت على النيل باعتبار توفر المياه شرط هام من شروط إقامة الحضارات عبر كل الأزمنة والعصور.

إن المطّلع على تاريخ مصر الضارب في الأعماق يجد أن النيل لعب دورا بارزا في استقرارها باعتباره أدى مهام اجتماعية وأخرى اقتصادية

ناهيك عن الدور السياسي ويظهر ذلك جليا عبر مختلف المراحل التاريخية التي مرت بها مصر وعلى وجه الخصوص الفترة الوسيطة التي صور لنا المؤرخون خلالها دور النيل في استقرار البلاد، ففيضان النيل لعب دورا في الرقي وفي المقابل تناقص منسوبه إلى حد معين كان له تأثير سلبي في جميع المجالات.

فالنيل يمُد مصر وساكنتها بما تحتاجه من مياه لسد الحاجيات وكذا استعماله في الملاحة وسقي مختلف المحاصيل الزراعية خاصة وأن موقع مصر الجغرافي ومكونات سطحها منحها طبيعة زراعية جعلت المجتمع هناك زراعي بامتياز وما ساعده على ذلك توفر المياه خاصة أن النهر لا يجري في منطقة معينة بل يجري في مناطق متباينة من البلاد

في مصر يظهر جليا ارتباط البيئة بالإنسان، إذ استثمر الإنسان المصري في المقومات الطبيعية التي تحوز عليها بلاده في مقدمتها النيل أين شيّد حضارة فلولاه لما قامت لمصر حضارة ولا كان لأهلها ذلك الذكر الذي كان لهم في التاريخ (محمد شفيق، د ت: 5).

وإن كل من يعرف مصر عن طريق الجوار أو الزيارة أو الإقامة وكل من خالط أهلها واتصل بهم يعلم دون أدنى شك أن للنيل فضل في رقي البلاد ومصدر ثراء لساكنتها ورخائهم إذ ترتب عليه ما للمصريين من ثروة (محمد عوض، د ت: 28) وعدّ الركيزة الأولى التي قامت عليها حضارة المصريين الذين انتفعوا ونفعوا بها غيرهم (الأقهسي شهاب، 2006: 07).

ومن خلال اهتمام العرب والمسلمين وغيرهم بالكتابة حول النيل يتضح مدى أهمية نهر النيل ومكانته في نفوسهم وشعورهم القوي

بفضله وذلك ما عبّر عنه هيرودوت حين زار مصر وشاهد النيل فأطلق عبارته الشهيرة التي سجلها التاريخ بأحرف من ذهب" مصر هبة النيل" فلا غرابة أن يهتم به المصريون قديما وحديثا.

إذا حياة المصريين مرتبطة بالنيل سواء عند فيضانه أو انخفاض منسوبه فنهر النيل كما أشار محقق كتاب أخبار نيل مصر الأقفهسي" النيل شريان مصر" (الأقهسي شهاب، 2006: 07).

وأكثر من ذلك النيل بالنسبة للمصريين ذا مكانة دينية مقدسة خاصة أنه وردت فيه أحاديث صحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم لما وصل السماء السابعة في رحلة الإسراء والمعراج فَعُدّ من أنهار الجنة منها ما رواه أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:" سيحان، وجيحان، والفرات، والنيل، كل من أنهار الجنة"(مسلم، 1930، ج 17: 176).

3 -أثر النيل في أزمة مصر "الشدة العظمى":

قبل الحديث عن تأثير النيل في اضطراب مصر وأزماتها يجب أن نشير أن نهر النيل لم يكن له تأثير إيجابي فقط على البلاد إذ كان مصدر الرقي والرخاء والسكينة في كثير من الفترات التاريخية وفي المقابل كان مسؤول عن أكبر الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي عاشتها مصر في كثيرا من الفترات. لعلّ أبرزها أزمة نهاية القرن الخامس الهجري(11م) تلك التي اصطلح عليها بين عموم المؤرخين بالشدة العظمى أو الشدة المستنصرية.

تركيزنا على هذه الأزمة وابتعادنا عن ذكر بقية الأزمات التي تسبب النيل فيها له ما يبرره إذ عُدّت هذه المرحلة من أحلك الفترات التي عرفتها مصر خلال العصر الوسيط.

قبل الحديث عن هذه الأزمة - الشدة العظمى - يجب أن نشير إلى تأثير معدل ارتفاع النيل إلى ستة عشر ذراع وارتفاعه وانخفاضه عنها على مصر على المدى القريب والمتوسط والبعيد.

كثير من الدارسين والمؤرخين الذين كتبوا عن نهر النيل طرحوا هذه الفكرة في مقدمتهم صاحب كتاب أخبار النيل عندما أرّخ لمرحلة مهمة من ارتفاع منسوب النيل وسماها بـ: "وفاء النيل" ذلك أن الزيادة في نهر النيل تكون عند الستة عشر ذراعا وهو الارتفاع المناسب الذي يبشر بالخير في القريب العاجل وبذلك يمكن تحصيل الخراج كاملا للسلطان هذه الزيادة – وفاء النيل – سميت كذلك "ماء السلطان" (الأفقهسي شهاب، 2006: 10) في هذه الحالة يكون له أثر إيجابي على مصر وساكنتها، وذلك يؤدي معنى مصر هبة النيل.

أما إذا زاد ارتفاع النهر عن تلك النسبة ووصلت إلى ثمانية عشر ذراع فإن المياه تغطي تقريبا كامل البلاد حتى يفوت أوان الزرع ما سمي عند المؤرخين باستبحار الأراضي وكنتيجة حتمية بعد انصراف الزيادة تحدث الأوبئة والأمراض(الأفقهسي شهاب، 2006: 10) وبالتالي فإن ارتفاع منسوب النيل عن الستة عشر ذراع له أثر سلبي لا إيجابي على البلاد والعباد.

وأما إذا نقصت مياه النهر عن الوفاء أي تحت ستة عشرة ذراع فإن ذلك ينذر بحدوث المجاعة لنقص الزراعة ويعقبها حدوث الوباء ويكثر الموت الجماعي واضطراب أحوال البلاد وانتشار الفوضى(الأفقهسي شهاب، 2006: 11).

إذن ارتفاع النيل إلى ستة عشر ذراع يكون له أثر إيجابي في رقي البلاد وازدهارها، أما انخفاضه إلى ما دون ذلك أو ارتفاعها عنها

يكون له أثر سلبي على جميع نواحي الحياة وهو ما حدث خلال الشدة العظمى.

هذا ما ذهب إليه الباحث عبده قاسم عبده في دراسته الموسومة بـ: "أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك في مصر قائلا في ما معناه: "هبوط مياه النيل أو زيادته عن منسوب الفيضان كان يمثل خطرا حقيقيا على حياة المصريين آنذاك..."(قاسم عبده، 1978: 65 -66).

4 -ماهية الشدة العظمى:

قبل الحديث عن تراجع منسوب مياه النيل وغيابها تماما ما أدى إلى الأزمة لبأس أن نضبط مفهوم الشدة العظمى.

لغة: حسب ما ورد في مختلف المعاجم والقواميس وفي مقدمتها قاموس لسان العرب لابن منظور فإن الشِّدّةُ تعني المجاعة، كما تعني صعوبة الزمن ومكاره الدّهر وجمعها شدائد(ابن منظور، د ت، ج25: 2215).

اصطلاحا: تعني الشدة العظمى تلك الأوضاع الصعبة التي عاشتها مصر لمدة سبع سنين في خلافة المستنصر بالله بحيث غابت مياه النيل وبغيابها انتشرت المجاعات حتى وصل حال الناس أن أكلوا بعضهم بعضا.

5 -نبذة عن المستنصر بالله:

المستنصر بالله أبرز الخلفاء الفاطميون بمصر قدّمت كثير من المصادر ترجمة وافية عنه في مقدمة هؤلاء تقي الدين المقريزي في كتابه اتعاظ الحنفا قال في نسبه: "هو المستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي بن الحاكم بأمر الله أبي علي منصور، أمه السيدة رصد..."(المقريزي تقي الدين، 1996، ج2: 184) .

وكان مولده بالقاهرة يوم الثلاثاء السادس عشر من جمادى الأولى سنة (420ه/ 1029م)، بويع بالخلافة في سن مبكرة إذ لم يتجاوز سنه ثمانية سنوات وكان ذلك حسب النصوص يوم الأحد في النصف من شعبان سنة (427ه/1035م، واستمر في الخلافة أكثر من ستين سنة، يقول المقريزي:"... أقام في الخلافة ستين سنة وأربعة أشهر وثلاثة أيام"(المقريزي تقي الدين، 1996، ج2: 184) أي ما بين (428 -487ه/ 1036 -1094م).

حسبما ذكر ابن حماد فإن الوزير الجرجائي لما مات الظاهر نصّب مكانه ابنه معد وهو طفلا صغيرا أسمر اللون كنّاه بأبي تميم ولقبه المستنصر باللّه(ابن حماد، د ت: 104) وأخذ له البيعة على الناس، في عهده شهدت مصر سكونا تاما إذ استقامت الأحوال خلال وزارته ما جعل الخليفة يقره في منصبه(المقريزي تقي الدين، 1996، ج2: 184 - 185).

السكون الذي شهدته مصر في عهده كما ذكر المقريزي يخص المرحلة الأولى من حكمه فقط لأن المرحلة الثانية ستشهد خلالها مصر أزمة عظيمة لم يسبق وأن شهدتها سابقا.

زودتنا كتب التاريخ بمعلومات قيمة عن أبرز ما جرى في إمامته فذكرت من ذلك خلع المعز ابن باديس الصنهاجي صاحب افريقية لبني عبيد، وقلب الدعوة لبني العباس كما خلع الدعوة للمذهب الإسماعيلي وأخذ يدعوا للمذهب المالكي(ابن حماد، د ت: 104).

من الأحداث العظيمة التي عرفتها بلاد المشرق في خلافته أيضا تلك الموقعة العسكرية الشهيرة باسم "كوم الريش" سنة (464ه/1071م) بين الأتراك والمغاربة استمرت طيلة أربع سنين مات

خلالها حسب الإحصائيات التي قدمتها المصادر اثنا عشرة ألف (12000)، هذه الفتنة منعت الناس ممارسة نشاطاتهم خاصة الزراعة والعمارة فكان من نتائج ذلك أن فُقِد الطعام بمصر وما جاورها وغلت الأسعار وتوفي أكثر الناس جوعا (ابن حماد، د ت: 85).

عموماً كانت السنوات الأولى من حكمه فترة استقرار ورخاء، لكن الفترة الثانية من حكمه شهدت أزمات خانقة اصطلح عليها بين المؤرخين بالشدة المستنصرية (الشدة العظمى)، كما خرجت كثير من البلدان عن طاعة الفاطميين ومن ذلك بلاد المغرب بداية من سنة (443هـ/1031م)، كما استولى روجر النورميدي على صقلية، وخرجت مكة والمدينة عن طاعة الفاطميين وخطبوا للخلافة العباسية سنة(462هـ/1069م)(زنوبة نادى، د ت : 28).

هذا الوضع شجّع الجند خاصة الأتراك منهم الاستيلاء على جميع المناصب فاستبدوا بالحكم دون الخليفة بل حذفوا اسمه من الخطب(زنوبة نادى، د ت : 30 -31).

6 -علاقة النيل بالشدة العظمى:

لنهر النيل علاقة وطيدة بما حدث في مصر مع نهاية القرن الخامس الهجري (11م) في خلافة المستنصر بالله الفاطمي، إذ ألّمت بمصر مجاعات لم يشهدها تاريخ البلاد كان لها تأثير سلبي على المجتمع بشكل خاص والحياة الاقتصادية بشكل عام. وقد كانت كتابات المؤرخين ومشاهدات الرحالة خيرَ شاهد على هذه المجاعات وآثارها التي كانت تنخر في قوى الدولة.

تحدّدت أهمية نهر النيل بالنسبة للمصريين ومدى تأثيره في حالة الاستقرار عند الوفاء، أو الزيادة عنها أو النقصان دونها في ظهور

مجاعات بوجهها القبيح فتؤثر فيهم وتُظْهِرَ عوراتهم إذا ما اصطحبتِ معها وباءً يفتك بالمصريين فيذهب بقواهم. فيما يلي سنحاول عرض ما حدث في مصر من مجاعات بسبب قصور مياه النيل وتأثير ذلك على الحياة العامة بأرض الكنانة.

زودتنا المصادر بمادة علمية لبأس بها فيما يخص خلافة المستنصر بالله الفاطمي وما صاحبها من أحداث لعلّ في مقدمتها تلك الأحداث المتعلقة بانخفاض منسوب النيل إلى ما دون الوفاء أو غيابه تماما وتأثير ذلك على قوة الدولة بصفة عامة.

يشير المقريزي أن مصر شهدت انحصار نهر النيل عدة مرات في خلافة المستنصر منها تراجع منسوبه سنة (444ه/ 1052م) فيقول :"شهدت قصور نهر النيل"(المقريزي، د ت: 17)، ومنها أيضا قصور مَدّه سنة (446ه/1054م)، (المقريزي تقي الدين، 1996، ج2: 226) ومنها أيضا قصوره سنة (457ه/ 1064م)(المقريزي تقي الدين، د ت: 17).

وكان لانخفاض منسوب مياه النيل وغيابها نتائج وخيمة على المجتمع المصري بحيث امتنع الزراع عن بذر القمح وباقي المزروعات ومع مرور السنوات خلت المخازن"(المقريزي تقي الدين، د ت: 14)، فتراجع المياه في النيل سنة (444ه/1052م) لم يكن في المخازن السلطانية شيء من الغلال فاشتدت المسغبة بمصر(المقريزي تقي الدين، 1996، ج2: 224). والمسغبة تعني الجوع مع التعب الشديد ، وفي موطن آخر من كتابه قال: لم يبق في مخازن الخليفة إلا ما هو مخصص لمطبخ القصر (المقريزي تقي الدين، 1996، ج2: 226).

ونتيجة لذلك وقع الغلاء الذي استمر سبع سنين حتى بيع رغيف الخبز بزقاق القنديل بمدينة الفسطاط بخمسة عشرة دينارا، وبيع

كيل القمح بالأرديب وهو مقياس ظهر بدل التليس بثمانين دينارا(المقريزي تقي الدين، د ت: 14).

ووصل الحد بالمصريين إلى ضرب الخبازين نتيجة فقدان الخبز في المخابز، يقول المقريزي في اتعاظ الحنفا: "...، وضرب جماعة من الخبازين وشهروا لتعذر وجود الخبز بالعشايا..."(المقريزي تقي الدين، 1996، ج2: 71).

أثار تراجع المياه لم تتوقف عند ارتفاع الأسعار فقط بل وصلت إلى حد انتشار المجاعات يقول المقريزي في كشف الغمة: "واستولى الجوع"(المقريزي تقي الدين، د ت: 14)، تلك المجاعات أدت إلى ظواهر كانت تبدوا غريبة عن المجتمع المصري منها أن وصل الحد بهم إلى أكل لحم بعضهم بعضا "...، حتى أكل الناس بعضهم بعضا..." (المقريزي تقي الدين، د ت: 14)، ومن عجائب ما حدث في هذه القصة "كانت طوائف تجلس أعلى بيوتها ومعهم سلب وحبال فيها كلاليب فإذا مرّ بهم أحد ألقوها عليه ونشلوه في أسرع وقت وشرّحوا لحمه وأكلوه..." (المقريزي تقي الدين، د ت: 14).

وتشير بعض الدراسات أن بعض الطباخين ذبحوا كثيرا من الصبيان والنساء وأكلوا لحومهم وباعوا الباقي بعد طبخها(عبد الحليم عويس، 1958: 50).

إن الشدة التي عاشتها مصر نتج عنها ظاهرة الحرابة المتخصصة في اختطاف البشر، فالنصوص تحدثنا عن امتهان عنصر السودان هذه الحرفة إذ كانوا يتخطفون النساء ربما لعدم قدرتهن على الدفاع عن أنفسهن، فشرحوا لحومهن وأكلنها والقصة التالية توضح ذلك: "اجتازت امرأة بزقاق القناديل بمصر وكانت سمينة فعلّقها السودان

بالكلاليب وقطعوا من عجزها قطعة وقعدوا يأكلونها وغفلوا عنها فخرجت من الدار واستغاثت فجاء الوالي وكبس الدار فأخرج منها ألوف من القتلى وقتل السودان..."(عبد الحليم عويس، 1958: 51).

ومما نتج عن هذه الشدة كذلك جلاء الكثير عن مصر إلى ما جاورها من بلاد بعدما هلك منهم خلق كثير(عبد الحليم عويس، 1958: 50).

وما يثير الانتباه خلال فترة تراجع النيل وحدوث الشدّة أن الحلي والألماس وغيرها لم تعد لها أي قيمة في غياب الغذاء وهذا ما اتضح في قصة المرأة التي باعت حليها مقابل تليس من الدقيق: "من عجيب الشدة المستنصرية امرأة من أرباب البيوت عرضت عقدا لها قيمته ألف دينار على جماعة ليعطوها به دقيقا وهم يعتذرون إليها ويدفعونها إلى أن رقّ لها رجل وباعها به تليس دقيق فحملته من مصر واكترت معها من يحفظه من النهابة وسارت تريد منزلها بالقاهرة فسلمه الحملة إليها عند باب زويلة، فلم تمش به غير قليل حتى تكاثر الناس عليها وانتهبوه منها فانتهبت هي أيضا مع النهابة فصار إليها ملء يديها دقيقا..."(المقريزي، 1996، ج2: 299).

هذه الأزمة عانى منها العامة كما عانت منها والدة المستنصر وبناته إذ نزحن صوب بغداد خوفا من أن يمتن جوعا سنة (460هـ /1068م) (عبد الحليم عويس، 1958: 49).

تشير المصادر أن نساء القصر هن كذلك عانين الجوع مثل البقية، فتشير إلى أنهن كنّ يخرجن ناشرات شعرهن وتصحن الجوع وجهتهن العراق لعلهن يحصلن هناك على رغيف، لكن ما إن تصلن إلى المسجد حتى تسقطن وتمتن جوعا(المقريزي تقي الدين، د ت: 14).

انحصار مياه النيل وحدوث المجاعة بالوصف السابق أثر حتى في الخليفة الذي،...، لزم عليه بيع كل ما في قصره من ثياب وسلاح وأثاث(المقريزي تقي الدين، د ت: 14).

كما ذهب وقار وزراءه وعماله الذين تلقبوا بالألقاب الفخمة، فتروي لنا بعض النصوص أن العمال لما باعوا ممتلكاتهم اشتغلوا في الحمامات، ومن ذلك أنه دخل رجل الحمام فقال له الحمامي: "من تريد أن يخدمك سعد الدولة أم عز الدولة أم فخر الدولة؟ فقال له الرجل: أتهزأ بي فقال: لا والله انظر إليهم، فنظر فإذا أعيان الدولة صاروا يخدمون الناس في الحمام لكونهم باعوا جميع ممتلكاتهم في الغلاء واحتاجوا إلى خدمة"(عبد الحليم عويس، 1958: 50).

ولم تقتصر آثار الشدة العظمى فقط على الجانب الاجتماعي والاقتصادي في مصر بل شملت كذلك الجانب السياسي، ومن الأمثلة على ذلك استثمار كثير من العناصر هذا الوضع الصعب في إضعاف الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر، ومن ذلك عنصر السودان وعنصر الأتراك الذين دخلوا في حروب طاحنة أثرت على دولة المستنصر بالله الفاطمي.

هؤلاء كما ذكرت النصوص كانوا سببا في خراب الديار المصرية بحيث شهدت مصر سنة (454هـ/ 1062م) فتنة عظمى بعد أن قتل بعض السودان عناصر من الترك، فتجرأ الأتراك لمعرفتهم المسبقة بأوضاع الخلافة السيئة لمقابلة الخليفة بقولهم:" إن قتل الذي منا عن الرضا الخليفة فالسمع والطاعة، وإن قتل من عن غير رضا أمير المؤمنين فلا صبر لنا على ذلك و أنكر المستنصر أن قتله برضاه أو أمره(المقريزي، 1996، ج2: 265 -266).

إن توضيح الخليفة الوضع السابق وبراءته مما حدث جعل الأتراك يستعدون لحرب العبيد فكان بين الفريقين حروبا طاحنة زادة في حدة الأزمة في مصر وما جاورها من البلاد(المقريزي، 1996، ج2: 265 - 266).

إن الوقائع السابقة جعلت الأتراك يغلظون في الحديث مع الخليفة المستنصر(المقريزي، 1996، ج2: 266).

هذا المثال نراه كاف على وصف الحالة السياسة الصعبة التي أصبح يعيشها الخليفة جراء تنفذ العناصر الأجنبية بعدما كان محاط بهالة من القداسة في إطار عقيدة الإمامة عند الشيعة الإسماعيلية.

هي تلكم الشدّة العظمى المرتبطة بتراجع مياه النيل أكّدت فعلا مقولة مصر هبة النيل" فالنيل له فضل كبير على استقرار مصر عبر التاريخ كما كان له الفضل في إقامة أعرق الحضارات على ضفافه، من دون أن ننسى أثره في رخاء المصريين وثرائهم.

خاتمة:

خرجت الورقة البحثية بجملة من النتائج يمكننا حصرها في النقاط الآتية:

شهدت مصر أيام الفاطميين الشدة والضيق لم تعرفه في عصورها كلها وإن ما يعرف بالشدة المستنصرية وحده لكفيل بإبراز هذه الحقيقة.

الفترة التي عاشتها مصر خلال فترة حكم المستنصر بالله كانت حافلة بأبشع صور الضيق التي أطلق عليها الشدة العظمى والتي أكل الناس فيها بعضهم بعضا، وأكلوا أولادهم، وأكلوا الحمير والكلاب.

لم يسلم من الأزمات لا الحاكم ولا المحكوم والشدة المستنصرية كشفت معاناة العامة كما كشفت معاناة الحاكم ونساءه وأمه.

ما كان يظهره الفاطميين من إنفاق على تنظيم الحفلات وتشييد أفخم المنشآت من قصور لا يرتبط بأي صلة مع ما كان يروج له من رخاء للدولة وإن ذلك تم تمويله من بيت المال، فأول أزمة كشفت سياستهم الفاشلة.

أثر الأزمة لم يشمل مصر فقط بل امتد إلى البلاد المجاورة.

بدأت الأزمة في مصر اقتصادية ثم اجتماعية فسياسية.

وفي غياب الغذاء لا قيمة للمال ولا الحلي مهما بلغت قيمته وكميته.

الشدة العظمى في مصر تقدم لنا الكثير من العبر لعّل في مقدمتها الحفاظ على نعمة الماء، فالنعمة لا يقدر الإنسان قيمتها إلا بعد أن يفقدها.

قائمة المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم، برواية ورش عن نافع.

1 -الأقفهسي شهاب الدين، (2006). **كتاب أخبار نيل مصر**، تحقيق لبيبة إبراهيم مصطفى، نعمات عباس محمد، القاهرة، مصر: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية.

2 -ابن إياس الحنفي المصري، (1960). **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، مطابع الشعب.

3 - ابن بطوطة، (د ت). **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. اعتنى به عادل أور خضر، بيروت، لبنان: دار الشروق العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

4 - ابن حماد (د ت)، **أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم**، تحقيق ودراسة التهاتي نقرة، عويس عبد الحليم، القاهرة، مصر: دار الصحوة للنشر والتوزيع.

5 -الحموي ياقوت الرومي البغدادي، (1977). **معجم البلدان**، بيروت، لبنان: دار صادر، ج5.

6 -الحميري عبد المنعم،(1984). **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عبّاس، ط02. ساحة رياض الصلح ، بيروت، لبنان: مكتبة لبنان،

7 -زنوبة مرسي، (د ت). **محاضرات في تاريخ وحضارة الدولة الفاطمية**، القاهرة: دار الثقافة العربية.

8 -عوض محمد، (د ت). **نهر النيل**، تحرير وتقديم عاطف معتمد، إصدارات بيت الجغرافيا.

9 -عويس عبد الحليم، (1958). **قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي**، ط02. القاهرة، مصر: دار الصحوة القاهرة، مصر.

10 -قاسم عبده،(1978). **أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك**، جامعة عيش شمس، القاهرة: مكتبة سعيد رأفت،

11 -ليون الإفريقي،(1983). **وصف افريقيا**، القسم التاسع: الأنهار والحيوانات والنباتات بإفريقيا، ط02. ترجمة عن الفرنسية محمد حجي، ومحمد الأخضر، بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي، ج2.

12 -مسلم ابن حجاج، (1930). **صحيح مسلم بشرح النووي**، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب ما في الدنيا من أنهار في الجنة، ط01. القاهرة: الطبعة المصرية بالأزهر، ج 17.

13 -المقريزي تقي الدين (1996). **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا**، تحقيق جمال الدين الشيالي، ط01. القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، ج2.

14 -المقريزي تقي الدين، (دت). **إغاثة الأمة بكشف الغمة**، تقديم وتعليق، ياسر سيد صالحين.

15 -ابن منظور، (د ت). **لسان العرب**، باب النون، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، كورنيش النيل، القاهرة: دار المعارف، المجلد 6،ج51.